عمر الخيام والاعتقاد بالعذاب الالاهي

﴿ توطئة ﴾ يقول المحققون من علماء التاريخ والاجتماع ان الانسان كان في العصور المظلمة يعيش منفرداً يوم لا مدن ولا حياة اجتماعية سوى الضراء والماء وكانت بينهُ وبين الحيوانات المفترسة حرب شعواء وبطبيعة الحال التجأ الى الكهوف وخروق الجبال واعالي الاشجار ليأمن شرها . ولاجل ان يدفع عن نفسهِ الخطر المحيق بهِ ركن الى ابن جنسهِ ليتشيء قوة يستطيع بها الدفاع عن نفسهِ . ولاجل درء الخطر المحدق بالمجتمعين ساقتهم الضرورة الى بناء البيوت ثم تكاثروا وتوسعت دائرة اجتماعهم وبدأت تلك الجمعية تأخذ بالترقي والتوسع الى ان وصلت الى الحالة التي نراها فيها بحكم قانون التكامل. هذا ما يقولهُ علماء التاريخ والاجتماع

امن الانسان شر الحيوان المفترس وتغلب عليهِ بالكثرة وبقي راضخاً لقوة اخرى هائلة كانت تهددهُ وتعبث براحتهِ وتنغص عيشهُ وتلك القوة هي الطبيعة. كانت صواعقها وبراكينها وزلازلها تقذف الرعب والفزع في قلبه فكان يخشى بطشها دواماً. ومن الطبيعي ان الانسان اذا خاف شيئاً ولم يستطع تذليله والتغلب عليهِ خضع لهُ وخنع وتظاهر بالحب بغية مرضاته وجلب رحمتهِ ومن هنا نشأت عبادة الطبيعة فبدأ الانسان يعبدها ويتخذها الاهة لهُ فشيد الهياكل واقام التماثيل رمزاً الى تلك القوة المسيطرة . والدور الوثني الذي مرت بهِ الاقوام في القرون الاولى دليل على صحة هذا القول. هذا وان اطلال طيوه ومنف وبابل وآشور واصطخر وآثينة وبومباي وروما وما فيها من المعابد والهياكل والتماثيل لدليل على رسوخ هذا الاعتقاد القديم في البشر

ومع ذلك فان الطبيعة العمياء لم يكن دأبها الغضب والحنق عليهِ دائماً فقد درَّت عليهِ بالنعم والهناء بغزير امطارها وينابيعها واوديتها وغاباتها وبجانب ذلك الخوف اخذ يجلها ويحترمها واعتقد ان هناك يداً قوية اخرى تحنو وتعطف عليهِ ومن هنا نشأت فكرة تعدد الآلهة . وقد نصب اليونانيون تماثيل كثيرة للآلهة برآسة زفس ابي الآلهة فكان منها آلهة الشر والخير والجمال والحكمة والحرب والعذاب كما نصب غيرهم من المصريين والهنود والفرس والرومانيين تماثيل لها او لما يقوم مقامها

فكرتان تجولان في مخيلة العلماء اليوم . الفكرة الاولى هو ان الانسان وديع مسالم يجتنب السيئات وانهُ ميَّال الى الخير طبعاً وان الضرورة تلجئهُ الى اثارة الحروب وسفك الدماء وهذه الضرورة ناشئة عن المزاحمة في الحياة . والفكرة الثانية

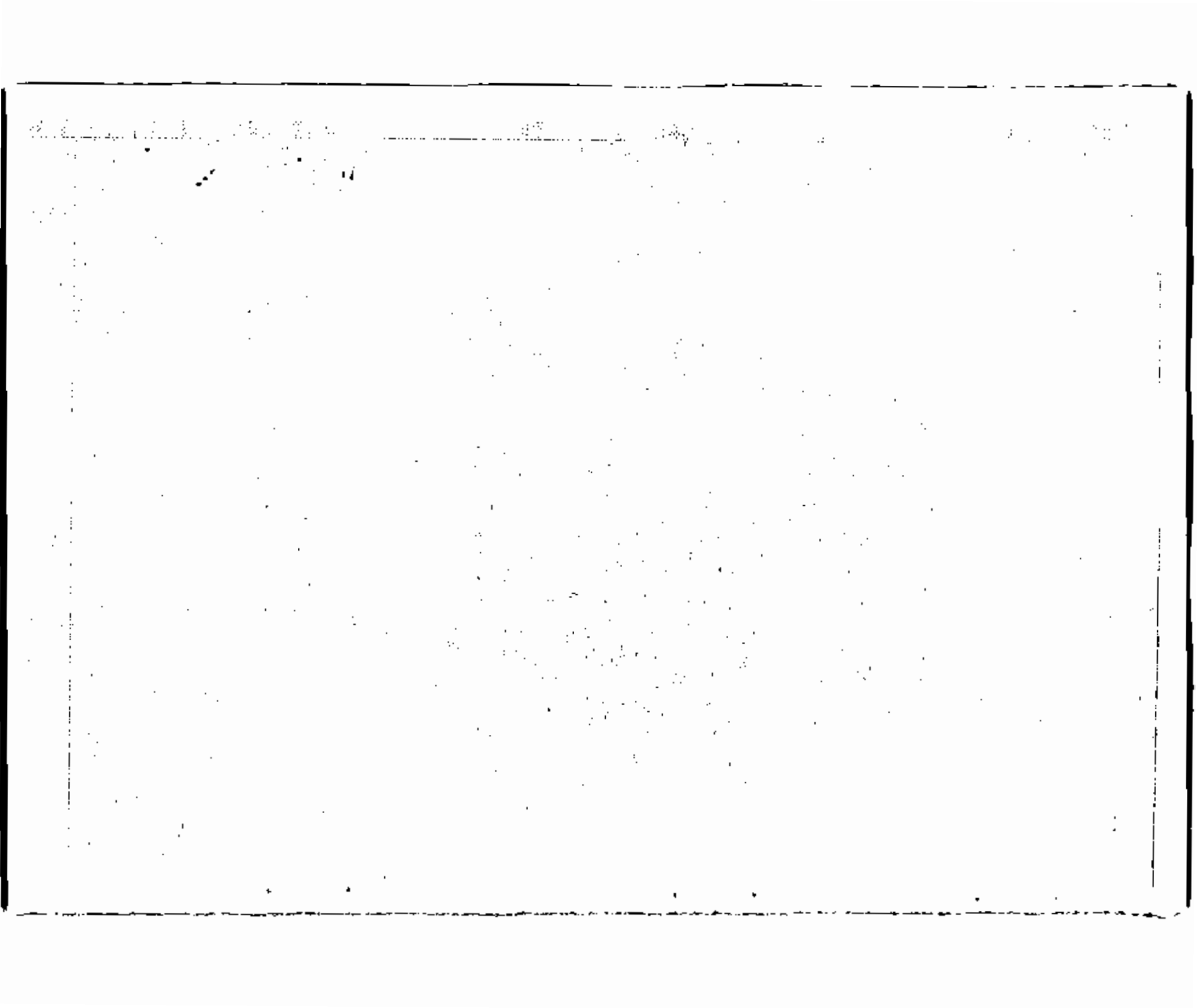

مسز اسكوث سنة ١٩٢٠

مقتطف نوفمبر ١٩٢٤

امام الصفحة ٣٨٥

عكس الاولى وهي ان الانسان اقرب الى الشر منهُ الى الخير وان من طبعهِ التغلب على غيرهِ لانهُ حريص ونفسيّة تسوقهُ الى ارتكاب السيئات لاننا نرى ان المزاحمة كانت قليلة في القرون الاولى لوفرة الاراضي ومع هذا فان الحروب كانت كثيرة وشديدة مما يدل على فظاظة اخلاق البشر وعندي ان الرأي الثاني ارجح من الاول

بيد ان فكرة العذاب لطفت خشونة طباعهِ وخففت فظاظة اخلاقهِ وقيدت القوانين حريتهُ . وفكرة العذاب مفيدة للمجتمع البشري وهي الحائل الذي يحول دونهُ ودون ارتكاب الجرائم ولو انتزعت هذه الفكرة وعلم الانسان انهُ غير مسؤول ولا ملوم عما يرتكبهُ وانهُ مطلق الحرية لارتكب ما شاء ان يرتكب غير مبال بشيء ومن ثم تسود الفوضى ويعم الكون البلاء والشقاء. لهذا السبب اضطر المجتمع البشري الى سن القوانين الرادعة لمعاقبة المجرمين الذين يعبثون بالامن والراحة العامة وبهذا قل ارتكاب الجرائم. ولا ينكر ان هذه القوانين هي سبب نظام الكون وعلة انتظامهِ ولولاها لحل محل الامن الاضطراب وتقوضت دعائم العمران وسفكت دماء وازهقت ارواح

فالقوانين العقابية هي الدواء الناجع لمرض الجرائم ومع هذا فان هذه القوانين التي قيدت حرية الانسان وقللت من الجرائم لا تكفي لاستئصال شافة الجرائم فيا اذا اقتصر الامر عليها وحدها

واذا رأينا الناس يجتنبون السيئات والجرائم فليس ذلك ناشئاً عن خوفهم من هذه القوانين . كلا بل ان فكرة العذاب في الحياة الاخرى هي التي تردع الناس وتزجرهم وتمنعهم عن هذه الموبقات والكبائر لهذا فاننا نعتقد انهُ لا يمكن للجمعية البشرية ان تعيش بهناء ما لم تعتقد بدين يردعها عن عمل المنكرات بما يفرضهُ لها من العذاب ولهذه الفكرة يسود السلام

﴿الخيام وفكرة العذاب﴾ اتينا بهذا المقدمة الوجيزة لنبحث عن رأي الحكيم النيسابوري في العذاب فقد شذ هذا الحكيم عن الناس باعتقاده ولا غرابة فان الشذوذ دليل النبوغ واعتقاد الخيام غريب في بابهِ ولو عم طرفة عين لانتثر عقد الاجتماع

انكر الخيام وجود العذاب لانهُ يتصور الله على خلاف ما يتصوره الناس فيستبعد صدور العقاب منهُ ويراهُ رؤوفاً رحيماً لا يقابل المذنب المسيء الاّ بالاحسان وهو ينفي الارادة الجزئية ويعتقد ان الانسان مسير بحكم الله وارادتهِ وان مصدر الاعمال التي يعملها الانسان هي ارادة الله ومشيئتهُ ومع انهُ لا ينكر العقل وهو (القوة المدبرة) الا انهُ يرجع بهِ الى الله لان العقل منحة ربانية ومن هنا يرى ان لا ذنب على المخلوق

اذا ارتكب معصية لان ما ارتكبهُ انما ارتكبهُ بارادة الخالق . ورباعيتهُ الآتية تدل على ما نقول وهي :—

يزدان چوكل وجود ما هي آراست
دانست زفعل ما چه برخواهد خواست
بي حكمش نيست هركناهي كه مراست
پس سوختن قيامت ازبهرچه خزاست

الترجمة « ان الله الذي عجننا كعجن الطين يعلم ماذا ستكون اعمالنا.ان خطاياي كلها بحكمهِ فاذن ماذا اراد بعذابنا يوم القيامة »

ويستدل من هذه الرباعية ان الخيام كان يعترض على وجود العقاب لانهُ ينفي الارادة الجزئية من الانسان.ويرى ان مصدر الاعمال والحركات هي مشيئة الله كما انهُ يعتقد ان الله ارفع من ان يقابل السيئة بالعذاب لهذا تراهُ يقول في احدى رباعياتهِ مخاطباً ربهُ بما يأتي :—

تا كرده كناه دراين جهان كيست بكو
وآن كس كه كناه نكرد چون زيست بكو
من بد كنم وتو بد مكافات دهي
پس فرق ميان من وتو چيست بكو

الترجمة « قل لي من هو الذي لم يرتكب خطأً في هذه الحياة وكيف عاش ذلك الشخص ولم يرتكب خطأً انا اذنب واسيء وانت تقابلني بالمثل اذن ما هو الفرق الذي بيني وبينك » . وقد اعتقد الخيام بانهُ من المستحيل ان يصدر العقاب من الله لانهُ رحيم غير منتقم ولا تصدر منهُ الا الرحمة واعتقد ان الله في كل مكان وحيثما حل حلت معهُ الرحمة وبهذا نفى مكان العذاب بتاتاً فقد قال

كفتى كه ترا عذاب خواهم فرمود
من درجحيم كه اوكجا خواهد بود
جائى كه توئى عذاب نبود آنجا
جائى كه تونيستى كجا خواهد بود

الترجمة « قلت انني سوف اعذبك . انا في حيرة ليت شعري اين يكون العذاب لا عذاب في المكان الذي انت فيهِ واين ذلك المكان الذي لا تكون فيهِ »

هذا رأينا في اعتقاد الخيام بالعذاب نبديهِ وننتظر من المشتغلين بفلسفة هذا الحكيم ان ينقدونا ان كنا مخطئين

معرب رباعيات الخيام
احمد حامد آل الصراف ببغداد